الجغرافيا الكبرى والجغرافيا الصغرى للخليج

أ . د . محمد رياض
جامعة قطر

مقـــدمة :

درجنا نحن سكان هذا الكوكب ـ عربا كنا أو غير ذلك ـ ان نسمع ونقرأ ونتكلم عن الخليج وليس في ذهن كل منا مضمونا واضحا لما نعنيه بالخليج . ومع ذلك فكلنا نشير إلى منطقة ذات ملامح عامة بالقدر الكافي الذي يجعلنا نفهم اننا نتكلم جميعا عن منطقة بذاتها . هذه الملامح العمومية لدى الغربيون تدور حول منطقة البترول العالمية الكبرى في جمع من الدول الشرقية الاسلامية بغض النظر عن كونها دولا عربية أو ايران . لكن الازمة الامريكية الايرانية في أول الثمانينات والحرب العراقية الايرانية خلال عقد الثمانينات قد اضافت لدى الغرب تمييزا لازما للتفريق داخل الخليج بين العرب وغيرهم .

أمـا نحن العـرب فمفهـومنا الأساسي من مصطلح الخليج انه يشير الى المنطقة البترولية العربية التي تكاد ان تلتقي فيها بكل أبناء العالم : فإلى جانب أصحابها هناك وافدون كثر من البـلاد العـربيـة ومن ايران ومن اقليم الهند ومن أوربا وأمريكا ومن الفلبين وكوريا وتايلاند واليابان . الخليج بالنسبة لنا عوالم متعددة متحوصلة على نفسها داخل الدول التي تعيش فيها . وهي دول صغيرة المساحة قليلة السكان كثيرة الثراء لديها فرص عمل لمن يحلم سواء كان عربيا أو أمريكيا .

ولعلنا نحن العرب ـ في سبيل تحديد أكثر لمفهوم الخليج ـ نميز بين السعودية والخليج . فانت بالنسبة لمعارفك في بلدك تعمل في الخليج باطلاق أو في السعودية بتحديد . وربما كان هذا التمييز راجعا إلى كبر مساحة السعودية وقدمها النسبي في فرص العمل .

وفي عالم السياسة والجيوبولتيكا لا يميز الغرب والشرق بين خليج عربي أو فارسي . بل ان بعضهم ، كالفرنسيين يريحون بالهم بتسمية مزدوجة ، فهو الخليج العربي الفارسي . وآخرون يكتفون بالخليج دون اضافة ملكية للعرب أو الفرس . وعند ذكر الخليج تتداعى لديهم مجموعة قيم أولها حول الاوبك والسوق الحر والمخزون العالمي للنفط . لكن من ثوابت الأمور ان الخليج هو المياه الدافئة التي تقود للمحيط الهندي بالنسبة لجيواستراتيجيات الشرق مند قياصرة روسيا . وفي مواجهة ذلك التهديد يتداعى الدور الايراني لدى جيواستراتيجيات الغرب كدرع يحمي هذه الميـاه وبتروها منذ امبراطورية الانجليز . والامتداد الجيوبولتيكي لهذين الاتجاهين المتصادمين مازال يمـر حتى الآن بمنطقة الخليج والشرق الأوسط . ومن ثم فإن الشرق الأوسط والخليج يحملان في الأفكار الجيوبولتيكية العالمية اسماء عدة ليست كلها حسنة : هي منطقة الصدام وهي منطقة الاهتزاز ، وهي منطقة التشتت والارتجاج . ولكن حيث ان الجيوبولتيكا تتغير كل فترة ، فلعل لدينا أمل ان نصنع لمنطقتنا ثبات يخرجها من دائرة التشتت والاهتزاز .

تحديد منطقة الخليج :

إذا بدأنا منطقيا باتخاذ التراكيب الجغرافية مقياسا في محاولة تحديد اقليم الخليج ، فإننا نرى ان المنطقة هي كل الأراضي التي تطل على خليجي عمان والعربي ، (أو الخليجين الأعلى والأسفل أو الخارجي والداخلي) . وليس الأمر مجرد الاطلالة على هذا المسطح المائي ، وانما يمتد إلى أكثر من ذلك . فهناك تفاعل حياتي وحضاري تاريخي ومعاصر لهذه الأراضي على الجانبين الشرقي والغربي للخليج (خريطة ١) .

وبهذا التحديد فاننا ندخل نطاق رأس الخليج وشرق الخليج - أي أجزاء من ايران والعراق فضلا عن كل دول مجلس التعاون العربي الصغيرة (الكويت - البحرين - قطر - الامارات) والجزء الشمالي من عمان والجزء الشرقي من العربية السعودية . وربما اعتبرنا منسوب ٢٠٠ متر نطاق تخوم غربية لاقليم الخليج داخل شبه الجزيرة . ويسهل التعامل مع هذه التخوم في الربع الخالي بينما يصعب التعامل مع هذه التخوم في الشمال حيث يتغلغل منسوب ٢٠٠ متر في غرب الكويت لكنه يعود حدا معقولا يفصل البادية عن رأس الخليج .

وإذا كانت نطاقات الخليج في جنوب العراق وخوزستان والساحل الايراني بسهوله الضيقة وتداخلاته البحرية وجزره من الخرج حتى هرمز هي أقسام حقيقية من تفعيلات اقليم الخليج الجغرافي ، الا انه يجب علينا ان نقيم حسابا يعتد به لتكامل هذه الاقسام العراقية والايرانية مع دولتيهما في نسيج يثقل موازناته لصالح الدولة في ايران أو العراق اللتان تمتدان في سعة خارج اقليم الخليج وما يحمله ذلك من ثقافة وسياسة خاصة وجيواستراتيجية شرق أوسطية نتيجة لامتدادات ايران إلى القوقاز وبحر قزوين ووسط آسيا ، وامتداد العراق في الشمال إلى بادية الشام والنطاق التاريخي الموصل - حلب عند اقدام طوروس وكردستان .

وإذا أردنا تميزا تاريخيا حضاريا لتخوم الخليج الشرقية فربما كان الفارق اللغوي هو رائدنا في ذلك . فإذا أخذنا اللغة العربية كميزة أساسية للخليج فإن الحد الشرقي للغة العربية كان في أحيان كثيرة ملتزم باجزاء كثيرة من ساحل فارس بين لنجه وشط العرب .

هنا في هذه البيئة الفقيرة الجافة البحرية الصخرية الحارة سكن عرب كثيرون عماد حياتهم البحر ، مولين ظهورهم لداخلية البلاد - تماما كما فعل أقربائهم على الساحل العربي ، ميممين البحر . لكن علينا ان نحسب ان عرب الساحل الايراني قد وقعوا تحت تأثير فارسي لغوي وربما سلالي أيضا . فهم - وان طال بهم الزمان خلال قرون طويلة من الاستقلال النسبي - قد أصبحوا جزءا من الدولة الفارسية أو الايرانية منذ ق ١٩ . وقد تأكد ذلك بعد أن أصبح اقليم البترول الايراني هو على مشارف المنطقة عربية الأصل سابقا ، وبخاصة خوزستان (عربستان) .

واضح من هذه المعالجة أننا نهتم بتحديد التخوم الشرقية لمنطقة الخليج ، أي تلك الواقعة في الجانب الايراني . ذلك ان غرب الخليج هو جزء لا يتجزأ من النطاق الحضاري العربي في قلب الجزيرة العربية . وان أي مقياس حضاري نتخذه لتمييز الخليج عن الجزيرة هو مقياس غير ناجح

التطبيق . فهناك لحمه سلالية حضارية لغوية دينية مذهبية متدرجة من وسط الجزيرة بدون حدود عبر مياه الخليج الى شاطئه الشرقي .

وربما كان التحديد السياسي لمفهوم الخليج أنسب وأكثر وضوحاً من التدرج المتداخل في الجوانب الجغرافية والحضارية . فالحدود السياسية - برغم انها اصطناع بشري - الا انها فوق أي ظواهر أخرى هي الحدود الفاعلة . وفاعليتها واضحة : فهناك خطوطا تفصل بدقة بين بلد وآخر (اذا كانت الحدود مرسومة باتفاق الدولتين) . وبرغم ان الحدود السياسية في غالب الأحيان تتجاهل القيمة الجغرافية لمفهوم الاقليم ، الا ان لها مزية الحصول على المعلومة والرقم ، وهي مزية هامة في الدراسة الجغرافية . وفضلا عن ذلك فإن مجرد وجود شخص ما داخل حدود سياسية معينة يعني انه يمارس كل ما تتيحه الدولة من مزايا ، ويخضع لكل ما تضعه الدولة من قوانين وتشريعات وحوافز وضرائب وحماية جمركية وحماية عسكرية .

فإذا أخذنا مجلس التعاون الخليجي معياراً لتحديد منطقة الخليج ، فانه يقصر عن ادخال أجزاء جغرافية في الخليج ، ويدخل أجزاء أخرى غير خليجية هي ظفار ونجد والحجاز وعسير . وبرغم ذلك فلعله من المستحسن الاتفاق على ان الخليج هو في الأغلب المفهوم السياسي لدول مجلس التعاون الخليجي . فهو أكثر تشابها من أراضي الخليج العراقية والايرانية . فهناك جمع من الظروف الجغرافية الشاملة في الميدان الطبيعي والسكاني والاقتصاد والسياسي تصبغها بتشابهات عامة هي ما يمكن ان نطلق عليه الجغرافيا الكبرى للخليج **Macro - Geography** . صحيح ان هناك تفرد في ظاهرات تفصيلية في أجزاء من دول مجلس التعاون تشكل الجغرافيا الصغرى في الخليج **Micro - Geography** ، الا ان هذه التفردات هي أجزاء من كل متكامل . وستقتصر هذه الورقة على مفهوم دول مجلس التعاون الخليجي ، مع الحفاظ على البنية الجغرافية بترك اقاليم وسط وغرب السعودية لبعدها وظروفها المكانية المغايرة .

الجغرافيا الكبرى للخليج :

سبق ان ناقشنا ان الخليج هو منطقة تخوم ثقافية لغوية ، وأن وجود المسطح المائي لم يقم حداً فاصلا انما أعطى تدرجا واضحا لنفوذ اللغتين العربية والايرانية وتداخلهما على الساحل الايراني . ولكنه معروف ان الالتقاء اللغوي يداخل مفردات لغوية على الجانبين . ومن ثم فإن في منطقة الخليج العربية مصطلحات ومفردات أخذت شكلا عربيا أو بقيت على حالها ومردها لغات ايرانية إما هي فارسية أو بلوشية أو اردية أو مما يلي بمباي من لغات قديمة كالملايلم في كيرالا وملبار وهما من أكثر شعوب الهند هجرة والتصاقا بالخليج . وكذلك هناك مؤثرات لغوية أخرى

مصدرها شرق أفريقيا نتيجة علاقات تاريخية واستيطانية طويلة . والخلاصة ان التداخل اللفظي من مصادر لغوية محيطة هي سمة لهجات الخليج وأن المؤثرات الفارسية اشيع في الشمال والأفريقية والبلوشية أشيع في جنوب الخليج ، بينما تغطى الالفاظ الهندية كل الخليج بقدر متقارب (شكل ٢) .

هذه العلاقة المكانية للخليبج لم تؤثر فقط في تعريب الفاظ غربية ، وانما أثرت على مجموعة من الصفات الخليجية . من هذه الصفات وعلى رأسها ظاهرة «أنا وغيري» . أي ظاهرة التقاء الشعوب والنظرة المتسامحة أزاء عادات وممارسات غريبة عن «أنا ومجتمعي فقط» وتقبل سحن وأشكال وألوان الشعوب المحيطة ، بل والتزاوج معها أيضاً . وذلك عكس عزلة المجتمع البدوي أو الجبلي الذي يعيش في بواديه أو وديانه متفاعلا مع ذاته ومجتمع اقرانه بدرجة يستغرب فيها غير ما يألفه ، بل قد يصده وربما يعاديه . صحيح ان العزلة البدوية والجبلية قطعتها الآن الطرق الحديثة والسيارات ، وأصبحت الأبل في متاهة وجودية ، هل تبقى أم تتقلص الى هجن السباق ؟ والأخيرة مهمة تجارية طارئة ، بينما الابل والبدو سابقا كانا صنوان حياة كاملة . ونحن الآن نفتش بصعوبة عن بدو في بادية الزمان الكلاسيكي . فالبدو استقروا جوار المدرسة والمستشفى ومعسكر القوات المسلحة والحرس الوطني . والتليفزيون قطع صلاتهم الوثيقة بالرمل والطعن ومهارة البحث عن الماء والمرعي ، ورسم لهم أفق أحلام المدينة والوظيفة نموذجا جديداً للحياة .

ويوضح الشكل (٣) نموذجا تجريديا لتراتب الحياة قديما وحديثا في الخليج . ففي الماضي - الذي هو تقريبا حتى منتصف هذا القرن - أي منذ جيل واحد فقط - كان التراتب عادة يبدأ من شريط ساحلي متقطع من السكن الدائم في مدن وبلدات ومستوطنات باحجام متعددة . يليه نطاق واسع من البداوة يمتد حسب ترحاله من الشواطيء قرب المدن إلى النطاق الايكولوجي الثالث الذي يتكون من الواحات الداخلية الكبيرة كبر الحسا أو البريمى والعين ونزوى أو الصغيرة كمحاضر ليوا وحرض .

ثم حدث التغيير بدخول البترول موردا جديدا للثروة وما يتبعه من متغيرات أدت إلى نظام اقتصادي جديد (ونظام سياسي جديد يقوم على أساس الدولة) . ويوضح النموذج ٣ ب كيف فقد الخليج أنشطة البحر التقليدية الاقليمية (عدا السماكه التي لم تعد الغذاء الأساسي ، بل جزء من قائمة أغذية مستوردة) . وبدلا من التجارة البحرية التقليدية ، أو وساطة النقل البحري أصبحت الصادرات والواردات عالمية التوجه . وهو ما كان له انطباعات نمطية على أفق الرحلة لأهل الخليج ، فقد حلت أمريكا وبريطانيا محل الهند وشرق أفريقيا خلال حياة جيل واحد .

كذلك فقد الخليج استخدام داخلية أراضيه بفقدان البداوة بالمعنى الشامل ؛ نظام حياة ونظام استخدام لايكولوجية البر في شرق الجزيرة . وسيكون صعبا استعادة هذا النمط الحياتي والاقتصادي الذي اكتسبه الانسان خلال عدة آلاف من السنين ، فلم يعد الفرد يكبر وينمو من خلال تجربة الاجداد وممارسة الآباء . وستظل البادية خالية من معنى العطاء الاقتصادي السابق بعد ان خطتها الطرق الحديثة ، وتجارب الاستزراع ، والسكن الترفيهي لعطلات نهاية الأسبوع أو أجازات الربيع .

وفي نطاق الواحات الداخلية حدث تغيير آخر بمقضاه لم يعد النخيل وحده هو المحصول الأساسي ، فقد أصبحت الخضروات هي المحصول التجاري اليومي جنبا إلى الاعلاف . وهي ظاهرة متكررة في كل الخليج حولت الواحة الكلاسيكية إلى ممارسة تجارية حديثة . وهو شيء محمود لولا كثرة الدعم الذي تقدمه دول الخليج للمنتجين في هذا الاتجاه مما يفسد مساعي الناس للتغلب على مصاعب البيئة والانتاج والتسويق بالممارسة والتجربة والفشل والنجاح .

ولكن أكبر ما حدث من تغيير هو ما حل بالشريط الساحلي الذي كان يمثل دعامة السكن الدائم في المنطقة . فقد كان الناس منتشرون في عدالة مقبولة بين مدن وبلدات ومستوطنات عديدة على طول الساحل ، يواجهون البحر حيث مصادر حياتهم . وكان لكل مستوطنة ذات شأن أسطولها الصغير من أنواع القوارب والسفن الشراعية لأغراض السماكة أو الغوص على اللؤلؤ وكان الأسطول يضم سفنا أكبر للملاحة البحرية الطويلة في بعض المدن الكبيرة كما يوضحه الجدول التالي :

قطـر : نموذج لأساطيـل المـدن الخليجيـة الكلاسيكيـة

المدينة	قوارب السماكة	مراكب اللؤلؤ	سفن أعالي البحار
الدوحة	٩٠	٣٥٠	٦٠
الوكرة	٣٠	١٥٠	٢٠
الخـور	٣٠	٨٠	٢٠
الظعاين	١٠	٧٠	١٠
سميسمة	١٠	٥٠	١٠
فويرط	١٢	٣٥	٩
الخوير	٥	٢٠	—
أبو الظلوف	١٠	٢٠	٥
الرويس	١٠	١٨	٢
الذخيرة	٥	١٥	٢
الوسيل	٣	٩	٢

المصدر: لوريمر ـ دليل الخليج ص ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠ طبعة الديوان الأميري ـ الدوحة .

والملاحظ من هذا الجدول عدة أمور أهمها :

١ ـ ان هذه الاعداد من القوارب والمراكب كانت فعلا مركزا لنشاط الناس جيئة وذهابا من القرية إلى السيف (الشاطيء) أو الفرضه حسب أهمية المدينة . وعلى السيف ورش القلافين (نجاري السفن) وغـيرهم من العـاملين في اصـلاح (أو بنـاء) السفن . فضلا عن اشغال السكان المتخصصين في عمل الشباك والمصايد العائمة (القراقير) وعمل واصلاح اقمشة الشراع . هذا فضلا عن الحركة المكثفة وقت الخروج في مواسم اللؤلؤ ووفود مرتزقين من هذه الحرفة من بدو الداخل وسكان ساحل فارس . ومثل هذه الكثافة في الحركة عند قفال المراكب للشاطيء . لهذا لم تكن خطة المدن والقرى الساحلية من النوع الشريطي بدون سبب . فالبيوت في أغلبها تمتد في مواجه البحر وسمك المستوطنات كان دائما يتسم بنحافة واضحة .

٢ - من بين أسماء المدن الأحدى عشرة الواردة في الجدول أعلاه لم يبق ذو أهمية في الوقت الحاضر سوى ثلاث هي الدوحة والوكرة والخور . وهجرت تماما الظعامين والفويرط والخوير والوسيل . وعاد الاهتمام مؤخراً بالبقية كسكن رخيص للعاملين في الدوحة من أهل البلدة الأصليين . فسكان سميسمه أو أبو الظلوف أقل من ٤٠٠ شخص بينما الرويس فيه ٧٠٠ والذخيرة ٨٠٠ شخص (فضلا عن ان بعضاً من هؤلاء السكان هم من الوافدين العاملين في خدمة البيوت) . وظاهرة المدن والقرى المهجورة هي ظاهرة متكررة في غالبية دول الخليج . والسبب في ذلك هو هيراركية الاقتصاد الجديد التي تسحب السكان الموزعين بعدالة نسبية على الاقليم وتركزهم في نقاط مركزية هي العواصم الجديدة التي تستحوذ على أكثر من ثلاثة أرباع سكان الدول .

ومن ثم فإن ظاهرة المدينة المهيمنة هي احدى أهم مواضيع الدراسة الخليجية باعتبارها ظاهرة من ظاهرات الجغرافيا الكبرى في الوقت الحاضر . فالعواصم الخليجية اليوم أشبه بتركيب دولة المدينة التي كانت شائعة في المدن الاغريقية أو الفينيقية أو السومرية . فالعواصم الآن هي قلب الدولة الاقتصادي والسكاني والصحي والتعليمي والخدمي والترفيهي . هي الميناء والمطار ومركز اشعاع الطريق ، هي تجارة الجملة ومخازنها ومركز توزيع التجارة في انحاء الدولة . هي مركز الحكم ومركزية الادارة والمال والاستثمار الداخلي والخارجي .

ولاعتبارات النظام الاقتصادي الجديد ، والتحول من اقتصاديات الأسرة الممتدة الى استقلال الفرد وتكوين بيوت منفصلة فقد حدث انفجار مساحي للمدن الخليجية . لكن الأهم من ذلك ان انسحاب الناس من الانشطة التقليدية في البحر والبادية والواحة قاد البعض إلى ميدان تأسيس أعمال حديثة تجارية ومقاولات وصناعة خفيفة ، بينما قاد الغالبية إلى مصيدة الوظيفة الحكومية بصفة خاصة . وبقيت أعمال كثيرة مكتبية وفنية وادارية تحتاج إلى تدريب كوادر خاصة . وإلى ان تم ذلك جزئيا فقد كانت احدى مجالات الدراسة الجغرافية الكبرى في الخليج هي الطفرة الكبرى في السكان نتيجة الحشود الكبيرة من العمالة الوافدة العربية والاسيوية والاوربية وهي التي جاءت تشغل فراغ النقله إلى النظام الاقتصادي الجديد .

وان اختلفت اقدار الدول الخليجية من الوافدين عددا وجنسية ، فإن ذلك مرده حجم الدولة وحجم السكان الأصليين وحجم المشروعات الجديدة وسرعة أو تأني الدولة في تخطيط وتنفيذ المشروعات المختلفة الادارية والتعليمية والصحية والاسكانية والعمرانية ومشروعات تعدد مصادر الدخل القومي بالتوجه إلى مؤسسات صناعية كثيفة المال المستخدم .

ولهذه الاغراض جاء الفنيون والمكتبيون والاداريون من الوافدين ، ومعهم اتت اعداد وافدة كبيرة من العمالة نصف الماهرة . ومن ناحية أخرى فإن تضخم المدينة ببيوت الأسر النووية الجديدة ، واحتياجات الحياة المنزلية والتسويقية والتعليمية لأعضاء الأسرة ، فقد ظهرت حاجة ملحة إلى عمالة منزلية وافدة كبيرة العدد .

وعلى هذا فإن دراسة البنية السكانية المتفجرة نموا بدرجة ونوعية لا مثيل لهما (نمو بلغ في المتوسط ٧ ـ ١٠٪ سنويا) جذبت الجغرافيين والاجتماعيين منذ البداية . والموضوع لا يقتصر على الجوانب الديموجرافية فقط ، بل يمتد أيضاً إلى دراسة العلاقة والمنافسة للجنسيات والسلالات المختلفة في سوق العمل الخليجي . فالهنود يحتكرون أعمالا خدمية لا يمكن زحزحتهم عنها لا بالمنافسة ولا باللوائح . والعرب الوافدون يحتكرون أعمالا كتابية وادارية وتعليمية . والاوربيون يحتكرون الاستشارات والادارات العليا في الشركات . وغير ذلك كثير من أوجه الدراسة في مجال المنافسة بين الجنسيات العربية بعضها البعض ، وكذلك المنافسة بين العرب والأوربيون ، وبين الهنود وجنسيات شرق آسيا .

وتبنى بعض الـدراسين موضوع تأثير العمالة الآسيوية المنزلية على تربية النشء . ولكن المبالغة في مخاطر ذلك كانت سببا في سقوط هذا الموضوع إلى درجة اهتمام ثانوية . فالنشء لا يعيش في عزلة انما يتعرض لمؤثرات الرفقة والاقران في المدرسة والشارع مما يعطيه طابع النشأة المحلية والقومية .

ومن بين الدراسات السكانية تقع دراسة القوة العاملة الآن في بؤرة اهتمام دوائر المخططين في جوانب التعليم والتـدريب والتـوظيف والخدمة المدنية . فبعد الدراسات المرحلية للوافدين واعدادهم ، وبعد ربع قرن من التعليم الحديث وانشاء التعليم الفني والمتوسط والتأهيل العالي في شتى الميادين . . وبعد ربع قرن من التعليم الحديث وإنشاء التعليم الفنى والمتوسط والتأهيل العـالى في شتى الميادين كل هذا أتى الآن الوقت الذي يمكن فيه مقارنة هذا التأهيل والتعليم بنتائجه في ميادين العمل . أين النقص ؟ ولماذا ؟ هل لأسباب تتمثل في تراث مجتمعي مثل عدم الرغبة في أي عمل يدوي أو فني كامتداد لتراث يقلل من شأن العمل اليدوي ويرفع من قدر العمل المكتبي أو التجاري حتى لو كان أقل عائداً ؟ أو مثل العزوف عن مهنة التدريس لما لا يصاحبها من ابهة المكتب وما يداخلها من مواجهة المسئولية أمام ادارة المدرسة والتلاميذ يوميا ؟ أم ان ذلك راجع إلى استراتيجية تعيين المحليين في القيادات الادارية التي سادت عقدا من الزمان (الثمانينات) ؟ هناك لا شك مدخلات كثيرة في موضوع القوة العاملة ولكن مما لا شك فيه ان حقولا في قائمة الأعمال سيتولاها الخليجيون المؤهلون بمزيد من الخبرة والتدريب ، الا حقول الخدمة الخاصة التي يصعب ملئها محليا اليوم أو في المستقبل القريب .

ومن الموضوعات الكبرى في جغرافية الخليج أشياء كثيرة على رأسها النفط الذي حرك المنطقة كلها باتجاهاتها الحالية في المجالات العالمية والمتغيرات الداخلية . والنفط موضوع درس واشبع بحثا . كم واين وعمر النفط . . اسئلة هامة اجاباتها تعطي الدول الخليجية استراتيجياتها الخاصة للمستقبل . فعلى سبيل المثال أدت قلة النفط الناتج والمخزون منه في دولة البحرين إلى مزيد من مشروعات الدول الخليجية المشتركة في تلك الدولة وإلى مزيد من تكثيف الخدمة المركزية المالية والبنكية والاتصالات والنقل الجوي . وعلى سبيل المثال أيضاً تتوازن ثروة الغاز القطرية مع احتياطي نفط غير متنام في دولة قطر . لكن الشيء الهام في نفط الخليج من الآن ومستقبلا هو الأهمية الجيوبوليتيكية للمنطقة باعتبار أنها تحتوي على أكبر احتياطي نفطي عالمي وأطوله عمرا . وإذا كانت استراتيجيات عالمية قد ميزت الخليج على خرائطها كمنطقة ذات اهتمام ، فانها الآن تضع الخليج في دائرة اهتمام أكثر مركزية . ويشكل ذلك أحد مهام الجغرافيا الكبرى لمنطقة الخليج . ما هو دور أصحاب المنطقة تجاه استراتيجية النفط العالمية ؟ وما هو الاستخدام الأمثل لفوائض النفط والغاز بالنسبة لاستراتيجيات التنمية الخليجية والعربية ؟ واسئلة أخرى كثيرة عن الاوبك والاوابيك والسوق العالمي وبدائل النفط وفتح أسواق جديدة في العالم النامى وما هو دور تناقص النفط السوفيتي على توجهات السوق الخليجية ؟

وقد أدت الظروف المناخية الى تشابه الانعكاسات البشرية تجاه المناخ . فكون الخليج جزء من المناخات الجافة الحارة ، مع سيادة للرياح الشمالية وفلول أعاصير طارئة شتوية كان لذلك آثار في ملبس الناس وتوجيه المسكن وطريقة الحصول على الماء الجوفي بحفر الآبار التقليدية أو بالزراعة البعلية (غير المؤكدة المحصول) . وكذلك استمدت الأشكال السابقة لاستغلال الأرض جذورها من الظروف المناخية . فتراتبت البداوة في ظل عبقرية الاستخدام الأمثل لبيئة الصحاري الهشة ، وكثف الانسان الناتج النباتي الضعيف بانتقال الرعيان والرعية بين المراعي كل في «ديرة» واسعة تشتمل على أراضي الكلاء وعلى مجال حيوي من الأرض للتوسع عند الازمات . لكن الهجرة الكاملة كانت هي الملجأ النهائي لجفاف سنين متعاقبة ، كما حدث في أواسط القرن ١٨ حينما تحركت قبائل عدة من نجد إلى قطر والبحرين والكويت وغيرت الأوضاع السكانية والسياسية التي كانت قائمة من قبل .

واستقرار السكان الدائم في شريط القرى والمدن الساحلية الخليجية ارتبط بامكانية الحصول على مياه عذبة من آبار قريبة من اقليم الساحل . فهنا نهاية المطاف لعدسة المياه الجوفية السطحية قبل ان تخالطها المياه المالحة بدرجة غير مقبولة . وعلى الساحل تعلم الناس فنون الملاحة بالارتباط بالرياح السائدة الشمالية (أو الكوس الشرقية في مواسم معينة) وتعلموا فنون الابحار مع

الرياح الموسمية صعودا وهبوطا في المحيط الهندي . أما كيف عرف الناس اللؤلؤ ، وكيف أصبح مطلبا عزيزا لدى بلاط الملوك والزعماء ، وكيف سوقه الخليجيون ولماذا في بمباي ، فانها أسئلة محيرة . لكن الذي مارسه الناس هو ما نعرفه من تكنولوجية معينة للحصول على اللؤلؤ ، وتركيب هيراركي في طاقم مراكب اللؤلؤ وتنظيم مالي «للطواشة» يستثمر في السفن والاعداد لمواسم الغوص السابقة واللاحقة (البشيرية والقفال) والموسم الرئيسي (الغوص الكبير)، إلى آخره من تراتب تجار اللؤلؤ وضرائب الحكام وشيوخ الاقاليم والقبائل ، والتركيب الاجتماعي الشامل للسكان والعلاقات المالية بين الناس وأشكال القروض وما قيل عن سخرة معينة في هذا المجال خاصة وقت الازمات المالية في الخليج .

وصحيح ان تفجر الينابيع التي تنبنى عليها مقومات الواحات هي حدث جيولوجي أو مورفولوجي على الأقل ، الا ان تكنولوجية الزراعة هي التي تحول هذه الأحداث في هذه الأماكن الى واحات . وحيث ان المتعارف عليه ان القبائل العربية ـ بادية ومستقرة ـ تعاف ممارسة الزراعة باعتبارها عملا يدويا ليس في منزلة التجارة والرعي شرفا ـ فإن الأمر يحتاج من الدارسين الى تقصي حقيقة من هم الذين كانوا يزرعون الواحات الضاربة في الغنى والرخاء الى عصور قديمة . فاذا كانت هناك أجابة سريعة عن العمالة الزنجية المسترقة والمحررة في القرون القليلة الماضية ، فهل كان الأمر كذلك في الألف الأولى قبل الميلاد ؟ ومن هم ارقاء الماضي ؟ من كل لون أن لون محدد ؟ وهل كان بينهم احرار فقدوا حريتهم لديون عليهم لم يوفوها ، كما كان الحال في اليونان وروما وحضارات شرقية أخرى ؟ وهذا ، وغيره من ظواهر حضارية ، كأنواع من مذاهب الموسيقى الراقصة والاغاني وآلات موسيقية ، تحتاج إلى مزيد من الدراسة كوضوعات كبرى في الجغرافية التاريخية للخليج أقصاه وادناه . وما هو تأثير الهنود والافارقة والفرس في فنون الملاحة والزراعة وأنظمة الرى . ما هو تركيب السلالة في واحات ذائعة الصيت كالاحساء (اليمامة سابقا على الأغلب) أو القطيف أو البريمي ؟ وتحتاج مثل هذه المباحث الى تفاصيل أخرى دقيقة كأن نعرف هل كان النخيل اختصاص عمل زراعي للعرب بينما اعداد الحقول وتنظيم المساقي والمحاصيل الزراعية الأخرى من نصيب الأفارقة ؟ أم ان الأفارقة احتكروا كل العمل الزراعي بحيث أصبح لا غنى عنهم في هذا المجال الغذائي الهام ؟

ومثل هذا ينطبق على أبحاث أخرى عن موضوعات شارك فيها الخليجيون باقدار متفاونة في الاستخدام والصناعة . مثال ذلك أنواع المراكب التي نقلت تجارة العرب من جنوب آسيا إلى شرق أفريقيا (الشكل رقم ٢) وكذا نقلت اعدادا من المستوطنين الخليجيين الى شرق أفريقيا وبدرجة أقل إلى الهند وأبعد من ذلك إلى جزر جنوب شرق آسيا .

وفي العصر الحديث أصبحت هناك موضوعات متكررة في الخليج ، دراسة نموذج منها يعطي الكثير من المؤشرات الحسنة عن مثيلها . وهكذا فإن دراسة نمو الطاقة الكهربائية والمياه المحلاة في غالبية الخليج متكررة من حيث النوع وليس الكم . وكذا عدد مشتركي التلفون والتلكس والفاكس وربما بعد قليل المشتركين في ارسال التلفزيون بالاقمار الخاصة . وتعطي دراسة مثل هذه الظواهر الحياتية ووسائل الاتصال نسبا للفرد الخليجي مماثلة (أو أعلى) من نصيب الفرد في كثير من دول متقدمة ، برغم ان ممارسات اجتماعية كثيرة مازالت تضرب جذورها في التقاليد والعادات السابقة على عصر الاتصالات . مثال ذلك ان مشاركة المرأة في ميادين من العمل مازالت قاصرة على نحو ٥٪ أو أقل من مجموع القوة العاملة . وبهذه المناسبة فإن التقاليد والعادات التي تقال لتبرير ذلك هي في الواقع ليست في تفصيلاتها دقيقة . فعمالة المرأة في عصر الغوص وفاعليتها المجتمعية كانت كبيرة داخل البيت وداخل الفريق (الحي) ، وربما كان لبعضهن أنشطة على الشاطيء أيضاً .

ومن الموضوعات المتشابهة في جغرافية الخليج نمو وشكل ومورفولوجية المدينة الحديثة . فحيث ان أوجه الشبه الوظيفي والعمراني والخدمي مفقودة بين المدينة القديمة والحديثة ، فإن المدينة الحديثة هي نبت عصر جديد صلتها العضوية بالأرض قريبة من الصفر . فبديل «الفريق» المترابط أسريا ، بل قرابيا على الأغلب ، تحتفظ أحياء المدينة الحديثة باسماء «الفرقان» القديمة بدون الدلالة القرابية . وكانت المدينة القديمة تتكون من بيوت صغيرة المساحة متلاصقة فيما بنيها بدون خطة طريق واضحة ، بل سككا ضيقة تلتوى وتنثني مع أسوار وابنية البيوت التي تزيد أو تقل كلما أضاف صاحب البيت اضافة ، أو كلما تقادم العهد بجزء من البيت فتساقطت احجاره لقلة الرعاية بسبب ضائقة ، أو موت الرجال أو هجرة الناس .

أما مدينة اليوم فقد صادفها أمران سهلا قيامها بشكلها الفاخر الحالي . أولهما أن المدينة تجاوزت الأحياء القديمة بهجرة أصحابها إلى أحياء جديدة بيوتها ذات مساحات واسعة وذلك نتيجة الدخول الجيدة من العمل التجاري أو الوظيفة ذات الايراد الشهري الثابت . وفي غالب الحالات تمت مثل هذه النقلة مرتين خلال حياة جيل واحد . ارتبط ذلك بتزايد المدخولات وخاصة بعد تأميم البترول ونشأة دولة الرفاه بحق ، مما ساعد على ترك البيوت التي بنيت منذ عشر إلى خمسة عشر سنة مرة أخرى إلى بيوت أوسع وأغلى معمارا وبناءًا وأثاثا ، بينما تحولت البيوت القديمة (نسبيا) إلى مخازن أو مساكن للعمال تؤجر بالغرفة لعدد كبير . وساعد ذلك على كثافة سكانية عالية جداً في وسط المدينة الخليجية المعاصرة ، بينما تناثرت المدينة في اتجاهات متباعدة

مكونة من مساكن كبيرة وفيلات ذات حدائق وكثافة سكانية منخفضة . وأدى هذا التباعد إلى طلب شديد على الخدمات الأساسية ـ كهرباء ، مياه ، تلفونات وأخيراً صرف صحي ، مما أرهق الدولة فعلا في هذه المجالات .

أما الأمر الثاني فراجع إلى استملاك الدولة لمعظم الأراضي . وذلك لأن القليل كان هو الملك الخاص في المدينة القديمة ذات المساحة الصغيرة . وقد ساعد ذلك على انه كان بامكان الدولة ان تخطط لمدنها في كل الخليج دون مشاكل تعويض تذكر . بل ان أراضي «الفرقان» القديمة عوضتها الدولة بفرقان أكبر وارحب مرات متعددة ، وهي فوق هذا مقام عليها البنية الأساسية من طرق وكهرباء وما إلى ذلك . صحيح ان بعض الخطط لتنمية المدينة قد تعرضت لتعويضات مالية كبيرة بحيث كانت هناك مضاربات على قيمة الأراضي بصفة عامة ، الا ان ذلك كان لفترة محدودة ، وفي مناطق محدودة حينما تشق طرق خدمة أسرع . وموضوع ملكية الدولة للأراضي هو في حد ذاته عامل حاسم في تخطيط وتنفيذ بناء المدن بتكلفة أقل بكثير مما لو كانت غالبية الأرض مستملكة للأفراد . ومن ثم ظهرت مدن الخليج الحديثة في نحو عشر سنوات مدنا متشابهة من حيث الاتساع وشبكة الطرق العريضة الحديثة المشجرة على الأغلب (برغم تكلفة الشجرة العالية) . وفي أحيان خصت الدولة بعض الأحياء بنماذج معمارية معينة . ونذكر على سبيل المثال منطقة العاصمة في عمان ، فمسقط محتفظة بمبان شبه تاريخية وألوان بيض ومطرح بسوقها وكورنيشها شبيه بالمعمار القديم ، وروى وقابوس والقرم لكل منها معمار خاص ومساحات خاصة ونمط حياة خاص . فالقرم نمط القصور عكس مدينة قابوس نمط الحياة شبه الأوربية وروى بعمائرها أصبحت مركز الأعمال والتجارة الحديثة . ومثل هذا ، وبصور أقل تشددا ، نجد المدن الخليجية الأخرى .

ويمكن ان نستمر في تعداد جوانب كبرى متشابهة في جغرافية الخليج . ويكفي هنا ان نذكر ان الجوانب الاقتصادية الحديثة متشابهة تشابها أشد وأقوى . فهناك في المدينة أرض وناس ونوازع وقيم جمالية تترك حرية لتفرد بعض الظاهرات العمرانية في دولة عن أخرى . فالقوس الرائع لكورنيش الدوحة بجزيرته الوسطى (المنظر العام كله ، وخاصة في الليل يذكر بانحناءة جنيف على قوس بحيرة ليمان مع نافورة المياه بديل جزيرة النخيل) ، يختلف عن النظام الشبكي لمدينة أبو ظبي بأشجار شوارعها المستقيمة شديدة الاتساع (بعضها شبيه الشانزليزيه) . وهذا وذاك غير التفاعل البيئى بين المدينة والجبل والوادي والبحر في مسقط . أما في الجوانب الاقتصادية فالنمطية واضحة بلا مزيد : سيطرة صادرات النفط على مكونات الناتج المحلي العام وعلى

الصادرات ، واستراتيجية الصناعة الحديثة قليلة العمالة كثيفة رأس المال والتي تقوم على أساس الطاقة الرخيصة ، والمكان ورأس المال الاستثماري . وكذلك هناك دائمًا محاولات في اتجاه الأمن الغذائي وشركات للزراعة المحمية والانتاج الحيواني .

وأخيراً فإن دول الخليج تتشابه في موضوع الجغرافيا السياسية من حيث المكونات والمقومات وانماط الحكم والمواقف السياسية المتماثلة أزاء العالم المحيط ، فضلا عن الارتباط الوثيق بالجامعة العربية واطار التعاون من خلال مجلس التعاون الخليجي .

الجغرافيا الصغرى في الخليج :

تتناول الجغرافيا الصغرى موضوعات الدراسات التفصيلية وفي أماكن محدودة . وذلك لاستجلاء أثر العلاقات المحلية في تراكيب معينة سكانية أو سياسية أو ممارسات اقتصادية أو خلفيات تاريخية .

وربما كان أول وأكبر موضوعات الجغرافيا الصغرى في الخليج هو التمييز الواضح بين اقليمين كبيرين هما الاقليم الجبلي العماني من رأس مسندم والامارات الشمالية الى بحر العرب عند الحافة الشمالية لرملة وهيبة ، وبقية اقليم الخليج الذي يطل فعلا على الخليج العربي (شكل رقم ١) . وليس سبب هذا التمييز الارتفاع العام لتضاريس المنطقة العمانية أو تاريخها الجيولوجي المختلف عن بقية النطاق الخليجي فقط . بل هناك مبررات عديدة ترتبت على هذا النوع من التكوين . فعناصر المناخ المحلية من حرارة ورطوبة وتساقط مختلفة ومؤثرة في أشكال الحياة النباتية والحيوانية على سطوح الجبال ووديانها العليا والسفلى ومنحدراتها وترباتها . ولكن من النقاط الهامة ان خزان المياه الجوفي في المنطقة العمانية هو جزئياً فوق مناسيب الأودية والهضاب المحيطة بالمنحدرات الجبلية . وهذا ما جعل في الامكان ، بواسطة تكنولوجية الافلاج ، جر المياه تحت السطح عدة كيلومترات دون أن تتأثر بالبخر ، تنحدر بقوة الجاذبية إلى الحقول والمستوطنات في صورة «الغيل» (المساقي أو القناة المفتوحة على سطح الأرض) . وبالمناسبة هناك تفسيرات عدة في أجزاء عمان الشرقية والغربية حول المقصود بالفلج والغيل . وبعضها هو كما ذكرنا : الفلج للمسار التحتي والغيل للمسار السطحي) .

عمر تكنولوجية الافلاج ضارب في القدم ربما للالف الأولى قبل الميلاد . وهي شبيه بنظام «القناة في ايران» ، و«الكهريز» في مناطق أخرى جافة . وهذا يشير إلى تناقل معرفة قديمة في هذه المنطقة الجافة . وليست كل الافلاج في عمان قديمة . بل ان لبعضها تاريخ معروف منذ ق ١٦ أو ١٨ نتيجة جهود أئمة أو استثمار قباطنة البحر لأموالهم في استعمار أرض وزراعتها في داخلية البلاد .

وتتكرر كلمة « مسفاه » في مناطق معينة على سفوح الجبال عند ارتفاعات مختلفة . فهناك مسفاه العبرين التي تقع على ارتفاع ربما جاوز ١٥٠٠ متر على السطح الجنوبي لكتلة الجبل الأخضر (قرب الحمرا) ، وربما كانت المسفاه عند مستوطنة «سيتال» على السفح الشمال للجبل الأخضر في أعالي وادي بني خروص على نفس الارتفاع . والمسفاه هي المكان الذي تسفى فيه المياه . وهي بذلك مناطق تخرج منها المياه طبيعيا في المنحدرات العليا وتعطي مصدراً مستمراً للمياه في تلك الأعالي . والأغلب ان سبب ذلك هو اختلاف مسامية الصخور في بنية الطبقات الحاملة للمياه داخل الجبال . والأمر يحتاج إلى دراسة مستفيضة ومقارنة بين جمع من مسافي عمان والمستوطنات البشرية التي نشأت بسببها ومصير هذه المستوطنات حينما يذهب الجيل الذي مارس زراعة المدرجات ، ويأتي جيل غير متمرس في هذا النوع الشاق من الزراعة ويفضل عليها أعمالا أخرى في المدينة القريبة أو البعيدة .

على العموم فإن الافلاج قد ساعدت على زراعة مساحات كبيرة من أراضي الوديان المتسعة عند أقدام الجبال فنشأت سلسلة الواحات الكبرى العمانية في شمال وجنوب الجبال ، من الكامل وجعلان في الشرق الى البريمي والعين في الغرب ، مروراً بابرا والمنترب إلى المضيبي وآدم ونزوة وبهلا وعبرى وضنك . بينما أكبر واحات السفوح الشمالية تتركز في منطقة بيدمونت جبل نخل والجبل الأخضر حول الرستاق وعوابي ونخل . ويمكننا اعتبار شريط الباطنة الزراعي ومدنه وقراه الساحلية من السيب في عمان حتى كلبا والفجيرة في الامارات ، بمثابة سلسلة متصلة من الواحات شمال الجبل الأخضر والحجر الغربي في مقابل مجموعة واحات السفوح الجنوبية المذكورة سابقا .

هذه الصورة من التداخل الزراعي الكثيف نتيجة الوديان والافلاج تختلف تماما عن صورة اقليم الخليج العربي . فالزراعة هنا هي الواحة الكلاسيكية كالاحساء ، أو زراعات قليلة ومحدودة مساحيا حول البئر لصعوبة رفع المياه من الآبار التقليدية . وحينما أضيفت المضخات الحديثة (على ما عليها من آثار عدم التوازن البيئي والاخلال بالمخزون الجوفي من الماء) فقد كان ذلك في مزارع غالبا للأثرياء ينشئونها أساسا للترفيه ، والبعض يستغل جزئياً لانتاج محاصيل تجارية ـ غالبا خضروات وطماطم .

ويلخص شكل رقم (٤) والقطاع التتابعي للانشطة الاقتصادية الاختلاف الفعلي في صورته العامة بين الاقليمين الفرعيين في الخليج . فهناك في منطقة الخليج العربي يتتابع شريط الساحل الدائم السكن ، مع نطاق الرمال والبداوة الواسع الذي يتخلله واحات مختلفة الاقدار .

بينما في المنطقة العمانية نجد النطاق الساحلي يتميز بالسكن الدائم المتوجه إلى أنشطة البحر والزراعة معاً . ثم نطاق غير عريض من الرمال والبداوة فيما بين السيب والامارات ، ونطاق صخري وعر مع أودية ضيقة حول الجيوب السهلية التي بنيت فيها مدن عمانية لها تاريخ طويل هي صور وقلهات وقريات ومسقط ـ مطرح . وفي هذه الأودية الجبلية انتشر الرعاة من الشواوى (نسبة للشياه ـ أي مربي الاغنام والقليل من الابقار) كما انتشروا في وديان الجبل الأخضر والحجر الغربي خلف سهل الباطنية وباديته الصغيرة . وفي الوديان حيث الافلاج الكبرى تتناثر المستوطنات العمانية داخل واحاتها الكبرى مثل سمايل وازكى وفنجه أو الواسط وهايل في وادي الجزى .

وفي النموذج الخاص بالتحولات في سهل البطانة (الشكل ٥) شبه بنموذج التغير العام (شكل ٣) في الاطار العام ، الا ان هناك متغيرات خاصة تجعل دراسة التحولات في البطانة مختلفة كما ونوعا . ففي الحالتين كان هناك مستوطنات تواجه البحر وتشتغل بأعمال البحر وبخاصة السماكة والسفر عبر البحار ـ الا ان اللؤلؤ كان نشاطا بحريا مقتصراً على سكان الخليج العربي . ومقابل ذلك كان سكان البطانة يمارسون أعمال الزراعة في هذا السهل الغني وفير الماء ـ آبارا وأفلاجا . ولكن علاقة سكان البطانة بالظهير الذي تكونه مستوطنات بيدمونت الجبل ووديانه الشمالية وثيقة لقرب المسافة وتبادل المصالح والغذاء . (الحبوب والتمور والليمون في البطانة ، والتمور وفواكه المنطقة الجبلية من عنب ومشمش وتين فضلا عن الثوم ولحوم الاغنام في البيدمونت المتمركزة حول الرستاق وغيرها) . وفوق ذلك فقد كانت البطانة تقع غالبا تحت ظل ادارة عمانية مركزية مرة في صحار وتارة في الرستاق مما خلق مدنا حاكمة في الاقليم ، ومازالت لها هذه الوظيفة للآن . فالوشائج سميكة بين الساحل والظهير بينما قد لا نجد هذه القوة في علاقة الساحل والداخل في منطقة الخليج العربي ، وبخاصة في الجوانب السياسية ، فقد كانت القبائل البادية في الظهير قوية وكثيرة الترحل مما خلق عوالم مخلخلة شبه منفصلة . لكن الأمر لم يخل أبدا من علاقة اقتصادية ونقل تقوم بها البادية من الساحل للداخل مع تبادل الغذاء بين منتجات البادية ومستوردات الغذاء في مدن الساحل .

وحينما حدث التغيير بقدوم عصر البترول ، ومدت الطرق الرئيسية على طول المناطق الساحلية أو بموازاتها كان هناك نمطان متميزان في الجغرافيا الصغرى . نذكر نموذجين منهما من البطانة ومن قطر . وليس معنى هذا ان النموذجين قد تكررا في المنطقتين العمانية وتلك المطلة على الخليج العربي . فكل مكان محلي له مدخلاته ، ومجالاته الخاصة .

أولا : نموذج التغيير في منطقة البطانة الشرقية وبيدمونت الرستاق :

المقصود هي المنطقة الممتدة من بركاء إلى المصنعة في مواجهة البحر ، ويحتطها إلى الداخل طريقين احدهما من بركاء إلى نخل والعوابي وينتهي عند الرستاق ليبدأ الطريق الثاني من الرستاق إلى الحزم إلى المصنعة . ويتكون الحد الفعلي من جبل نخل الموازي للطريق من نخل إلى العوابي ، والجبل الأخضر من العوابي إلى الرستاق . قي هذه المنطقة ثلاث مناطق ايكولوجية أولها الساحل وسهل الباطنة الذي يمتد في شريط يتراوح عرضه بين ٥ و١٥ كيلومترا . وتحتل الزراعة فيه نطاق أقرب إلى البحر في حدود عرض ٢ - ٤ كم فقط . وتقع قرى الصيادين والمستوطنات الأصلية للبطاقة على التكوين الرملي للساحل تاركين الحقول خلفهم . وبين الحين والآخر توجد مدينة أو مستوطنة كبيرة إلى الداخل قليلا تتمركز حول سوق وحصن . وفي ١٩٧٤ مدت الدولة طريق السيب صحار إلى الجنوب من النطاق الزراعي كي لا تخل بالحقول قدر الامكان .

ولكن ما ان تم انشاء الطريق حتى بدأ الناس في استخدام واجهته أولا كمحلات صغيرة جوار محطات البنزين ، ثم تحولت المدن والمستوطنات الساحلية تدريجيا إلى واجهة الطريق مقتطعة أجزاء غالية من الحقول . لكن الابنية والعقار على الطريق وقريب منه أعلا غلة من الأرض الزراعية . وفي أول الثمانينات كان المار على هذا الطريق يرى الحقول والنخيل باستمرار بشمال الطريق . واليوم تحجب المباني أكثر من نصف الحقول عن الطريق وبخاصة في البطانة الشرقية حيث نقترب من العاصمة ، وترتفع قيمة الأرض .

ولم يكن ارتفاع قيمة الأرض لهذا السبب وحده . ففي منطقة السيب تحولت الحقول إلى قيلات وقصور صغيرة لقضاء عطلات نهاية الأسبوع واجازات الربيع والصيف . صحيح ان المنظر الأخضر مازال قائمًا ، لكنه أفقد هذه المنطقة القريبة من العاصمة وظيفة انتاج الالبان والخضروات . كما أدى العمران الترفيهي والسكن على طول الطريق إلى كثافة حركة أكثر من قدرة الطريق السريع حين انشيء . ومن ثم أضيف للطريق في جزء منه طريقا آخر ليصبح أوتوسترادا قادراً على تحمل عبء الحركة .

أما المنطقة الثانية فهي الهضبة التي تتدرج ببطء غير محسوس إلى اقدام الحوائط الجبلية والوديان التي تشقها . وتنقسم هذه الهضبة إلى قسمين : الأقرب إلى السهل يسيطر عليها جزئياً التكوين الكارستي بحيث لا تظهر الوديان على السطح . وهذه الهضبة وجزء من السهل كانت مجال تنقل البادية بابلهم شمالا وجنوبا ، وبموازاة محور البحر شرقا وشمالا بغرب . لهذا لا نجد عمرانا قديما أو حديثا في هذه الهضبة . وفي أجزاء أخرى من شمال البطانة استقر هؤلاء البدو في بيوت من الطوب قريبا من الدروب التي تخترق البطانة إلى المدن الساحلية .

وإلى الجنوب مباشرة نجد البيدمونت الحقيقية حيث الوديان تخرج زاخرة بالمياه أو تظهر بها برك من الماء حسب موسم وقدر الامطار . وعلى جانبيها زراعة ارصفة يجتهد الفلاح في المحافظة عليها من الفيضانات العالية . وقد سهل الطريق الاسفلتي نجاح الزراعة والاستقرار في هذا الجزء كامتداد لسكن واستغلال تاريخي قديم . وقد زاد الاستقرار بتمركز وامتداد الخدمات الأساسية لمراكز الولايات وبخاصة الرستاق ، فهنا الادارة والمدارس والوحدة الصحية والرعاية الاجتماعية ، ومصنع التمور ، ومنحل العسل . ولقرب الرستاق من مخارج أودية كبيرة فإن الراجح ان جزءاً من تبادل ثروة الشواوي (رعاة الاغنام والابقار) يتم في سوقها .

والخلاصة ان التغيرات الحديثة في هذه المنطقة قد أدت إلى تحول مكان المدن الى الطريق ، وفقدان جزء من حقول الانتاج الزراعي نتيجة لذلك ونتيجة للاستخدام الترفيهي ، وان الهضبة الكارستية أصبحت خالية من النشاط الانتاجي بعد استقرار البدو ، وان البيدمونت قد تأكدت أهميتها بامتداد الطريق الاسفلتي اليها ووصول الخدمات الأساسية واسيطان القائمين بهذه الخدمات في المنطقة .

ثانيا : منطقة الخور في دولة قطر :

كانت منطقة الخور من المناطق التاريخية الهامة في قطر . وتقع مدينة الخور على نهاية الخور الذي هو في الواقع تتمة غارقة لوادي يمتد غرب هذا الخور بحوائط شبه عمودية الى ارتفاع محدود (٥ ـ ٧ متر) . وعلى جزء من الحائط الجنوبي اكتشفت آثار وهياكل تعود إلى نحو الألف الرابعة ق.م. مما يدل على سكن قديم حينما كان منسوب البحر أعلا بنحو ٢ ـ ٣ متر عن منسوبه الراهن . ومن جملة ما وجد من لقي أثرية في هذا المكان أنواع من فخار يعود إلى حضارة «العبيد» المنتشرة في سومر وشرق السعودية وأماكن أخرى خليجية .

وفي عصر اللؤلؤ كان لموانى اقليم الخور (الذخيرة وسميسمة والظعاين والخور) اسهام يصل ٢٦٪ من أسطول اللؤلؤ القطري ، ونحو ٣٠٪ من سفن النقل البحري القطرية (راجع جدول سابق اعلاه) . ومازالت الخور للآن من أهم مراكز صيد السمك في قطر .

في الماضي كان حول الخور مزارع محدودة في عدة روضات (الروضة تطلق على المنخفضات ذات تربات جيدة للزراعة) أهمها العقدة وأم قين وتنبكك . وكانت هناك مراكز استيطان ساحلية مجاورة هي الذخيرة شمال الخور وسميسمه والظعاين جنوبها . وفي الداخل كثير من مضارب البدو من النعيم والكعبان وبعض المهاندة والحسن من المهاندة. هذه المضارب كانت تختار عند آبار في روضات متفاوتة الاحجام مثل البويرده ، أم القهاب ، أم بركة ، والخريص والوعب إلى الشمال أكثر . وبعض هذه المضارب تحولت تدريجيا إلى مساكن بدوية شبه دائمة (شكل ٦) .

ثم جاء عصر البترول . وشق طريق الشمال القديم من الدوحة إلى الرويس . وعند أم سويجة كان مفرق الطريق المتجه لمدينة الخور وعند هذا المفرق نشأت قرية أم سويجه عند آبار عذبه تغذي الخور . وكان هذا الطريق يمر عند أم بركة وسمسمة . وبتحول الكثير من الناس إلى وظائف في الدوحة وبتقديم خدمات التعليم والصحة الى مدينة الخور جاءت فترة الستينات وأوائل السبعينات لتشهد تهجير سكان أم سويجه وأم بركة وأم القهاب والعقدة الخ إلى الخور والذخيرة حيث تركزت المدارس والوحدة الصحية والبلدية وخدمات الهاتف ، والبنك والسوق والجمعية التعاونية لبيع المواد الغذائية . ثم أنشيء الرصيف الجديد للميناء في الخور وتركز أسطول المستثمرين من أهل المنطقة على هذا الرصيف الذي يشتمل على أكثر من ١٥٠ مركبا من أنواع السنبوك القديمة المجهزة بالمحركات ، بالاضافة الى «طرادات» قوارب أصغر وأسرع بعضها من االمواد المصنعة (فيبرجلاس).

وقد أدى إلى عودة سكان كثيرين من أهل الخور والذخيرة وسميسمه الى السكن فيها بانشاء المساكن الحديثة . بل ان تزايد المداخيل الفردية لدى البعض قد أدى إلى اعادة تعمير مناطقهم القديمة في روضات أم القهاب وأم بركة والرحيه وأم الغاف . فأصبحت هناك مساكن ترفيهية داخل البر لعطلات نهاية الأسبوع والربيع . وتتداخل في هذه المناطق مزارع ومساكن ترفيه لملاك من خارج الاقليم (غالبا من الدوحة).

وإلى جانب هذا فإن شواطيء كثيرة في رأس النوف وعريدة ورأس لفان قد بنيت عليها فيلات لملاك كبار لعطلات نهاية الأسبوع مما يهدد الشواطيء الطويلة لمنطقة الخور بالاستملاكات الفردية .

هذه الطفرة ـ بعد تفريغ السكان ـ ربما يزيدها كثافة ان حقل غاز الشمال البحري يقع شمال اقليم الخور مباشرة . وحيث ان الشواطيء القريبة في لفان والحويلة ملكيات خاصة ،وحيث ان أنابيب الغاز الممتدة إلى بقية قطر تخترق اقليم الخور عند أم القهاب ، وحيث

ان الخور هي المركز الحضري الكبير في المنطقة ككل (٥٣٠٠ شخص ١٩٨٦) فربما كانت الخور مرشحة لأن تصبح مكان لبناء حي سكني للعمالة التي ستعمل في موضوع الغاز ومصنع تسييل الغاز وربما أيضاً انشاءات أخرى كمحطة تحلية وطاقة جديدة . هذا فضلا عن المنطقة الصناعية الحالية بين الخور والذخيرة وهي مازالت في أول عهدها .

والخلاصة ان اقليم الخور بعد ان فقد نشاط اللؤلؤ وفقد البداوة بعد دخول عصر البترول وحدث له تفريغ سكاني (الا مدينة الخور) قد عادت له أهميته السكنية بعد انشاء طريق الاوتواستراد الجديد، مع القرب المكاني في الدوحة (نحو ٥٠ كم فقط) ثم مع الطفرة في المدخول خلال السبعينات وأوائل الثمانينات بدأ الاستثمار في سفن الصيد أولا ، ثم المزارع ثانيا ، بحيث أصبحت منطقة انتاج غذائي منوع سمكي ودواجن بكمية جيدة ، وخضر بكميات محدودة . ثم جاء السكن الترفيهي الخاص على الشواطيء أو في الروضات الداخلية . والمنطقة بعد مؤهلة لأن تكون مقرا سكنيا للعمالة في النشاط الصناعي الذي سوف يقوم على استخراج الغاز وتسييله (شكل ٧) .

ختام :

ليست كل عناصر الجغرافيا الصغرى مرتبطة باقاليم أو مناطق ذات تمايز في مقوماتها تؤدي بها إلى توجهات وتحولات معينة فقط . بل ان هناك عناصر أخرى للدراسة الصغرى وبخاصة في الجوانب الحضارية في الخليج . ولا تتسع الورقة الا لذكر بعض هذه العناصر مثال ذلك دراسة علاقة المكان في اختلاط السلالة المهاجرة والمستوطنة داخل الخليج . فتوجهات وعلاقات عمان المكانية قد أدت الى تداخلات من بلوش مكران وعرب وبانتو الساحل الشرقي لأفريقيا ، وذلك فضلا عن الوشائج القوية بسكان جنوب الجزيرة العربية القدماء كالمهرة والجبالية . ومثل دراسة غطاء الرأس الخليجي . فهو في معظم الخليج العربي العقال والغطرة البيضاء غالبا ، بينما هو في عمان ـ بل جنوب الجزيرة ـ العمامة ذات الربطة المعينة والألوان المتعددة . وهناك بعض دراسات تشير إلى ان الغطرة والعقال قد غزت المنطقة آتية من الشمال ـ ربما من بادية الشام والدهناء .

وثمة عنصر آخر . فسكن الواحة الغالب على عمان ، ومن أجل الحماية وتوفير الأرض للزراعة ، أدى إلى مورفولوجية القرى العمانية المسورة ذات المساكن المتلاصقة . ويؤدي هذا إلى تفاعل ابناء المجتمع من الجنسين في الكثير من الانشطة اليومية ، من ملء جرار الماء إلى أنشطة متعددة في ساحة القرية . وذلك عكس البيوت المستقلة ذات الاسوار في قرى النطاق الساحلي حول الخليج العربي مما يؤدي الى فصل واضح في الانشطة بين الجنسين . هناك أيضاً نظام «البادجير» للتهوية في بيوت الخليج العربي ، بينما يستخدم سطح البيت في ساحل عمان للحصول على أجواء مفتوحة .

والخلاصة ان منطقة الخليج مليئة بامكانات الدراسة التي يمكن ان تبرز الشخصية الخليجية تاريخيا وحديثا من خلال موضوعات كبرى ، مع التمييز المحلي لأماكن أو اقاليم فرعية نتيجة علاقات مكان ومدخلات بيئية وحضارية متعددة . وقد آن الأوان لنطرق موضوعات صغري في دراساتنا أو دراسات تلامذتنا في أبحاث الماجستير والدكتوراة بدلا من اطروحات متكررة لموضوعات عامة منفصلة عن الكيان الشمولي للدراسة الجغرافية ، قليلة الأهمية في اعطاء المؤشرات الحقيقية لتوجهات التنمية وتخطيط التكامل الاقليمي على أسس صحيحة من المدركات الجغرافية والحضارية .

مفاهيم متعدده للخليج

شكل (١)

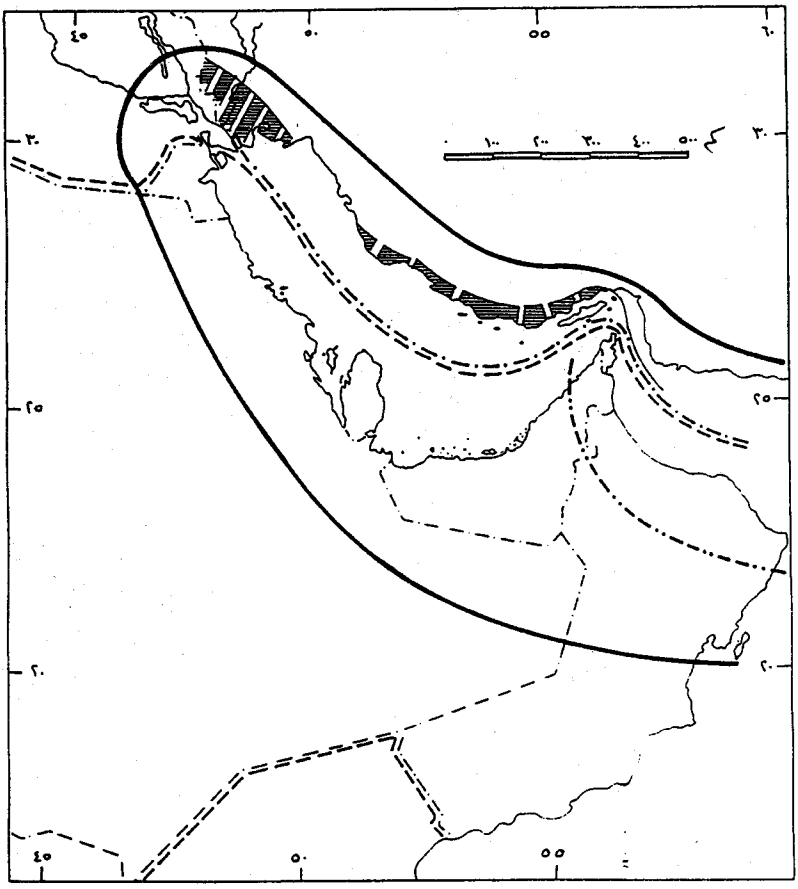

الإقليم الجزائي الخليجي

الحد الشرقي للغة العربية (مع تداخل لغات إيرانية)

الحد السياسي الشرقي للمنطقة العربية

حدود دول مجلس التعاون الخليجي

تخوم تقريبية للإقليم الفرعي العماني داخل الإقليم الخليجي

الجغرافيا الكبرى لعرب الخليج : الخليج عبر البحار

شكل (٢)

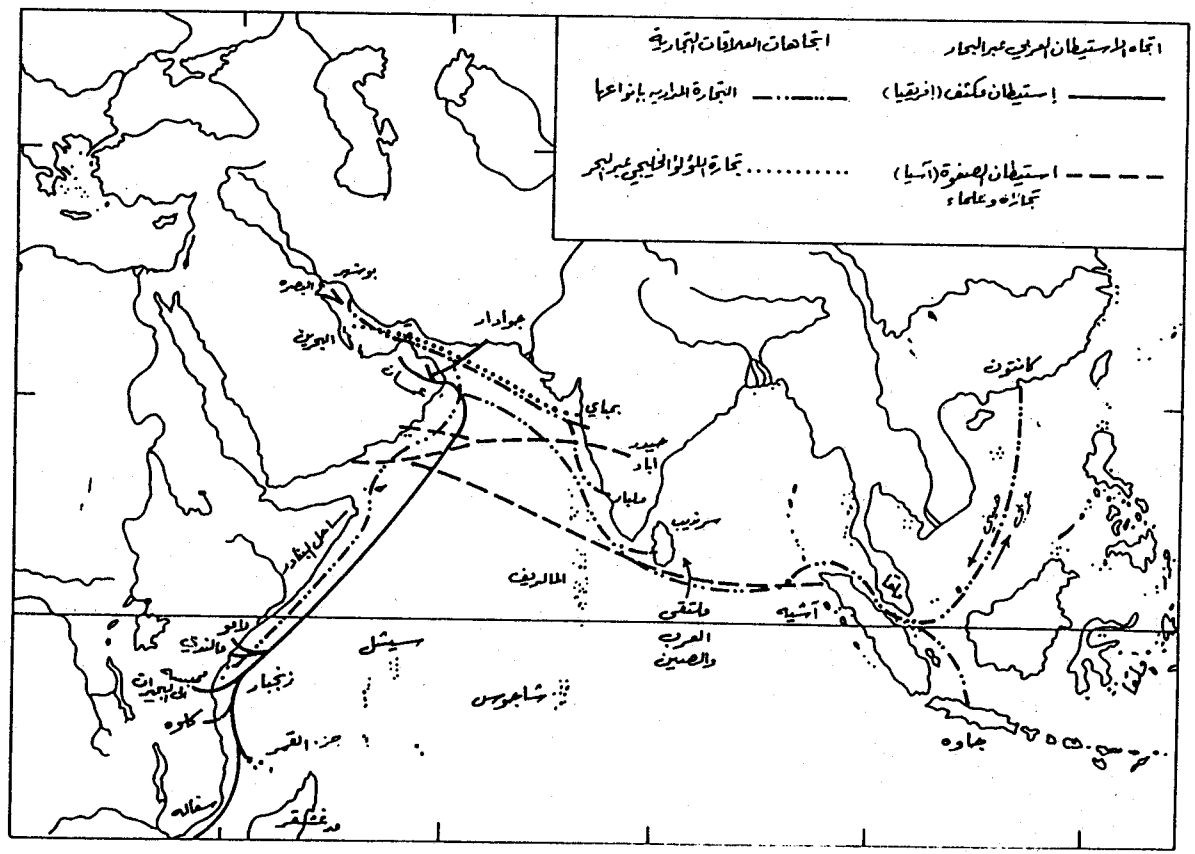

شكل (٣) تجريد لنموذج التغيير في الخليج

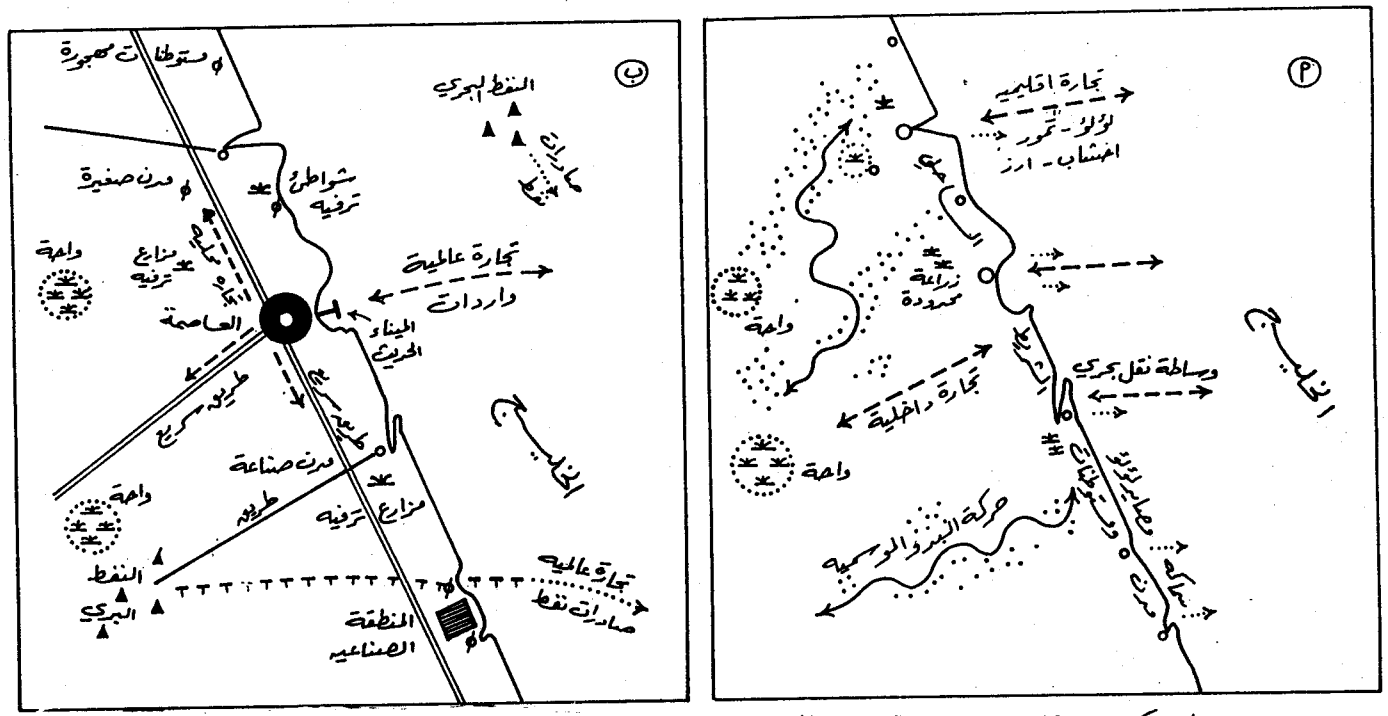

أنشطة البحر التقليدية | نظام السكن الساحلي الدائم | نظام البداوة | نظام الواحة الداخلية | النفط البحري تجارة بحرية حديثة | نمو المدينة الواحدة | فقدان البداوة وهيمنة المدينة الشبكة الطرق الحديثة | حقول البترول البرية

إيكولوجيا الانسان في الخليج
(قبل البترول)

شكل (٤)

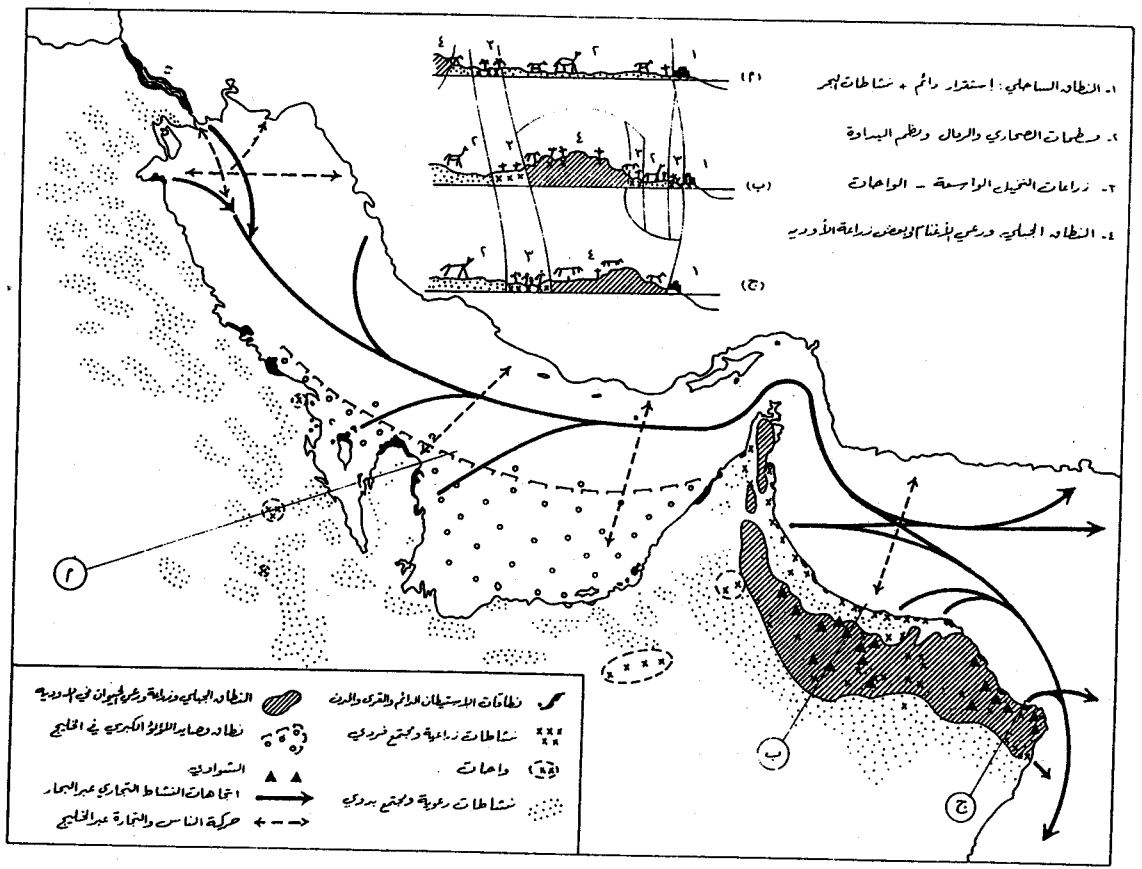

شكل (٥)

تجريد لنموذج التغيير في الخليج : ساحل البداطنه واقدام الجبال العمانية

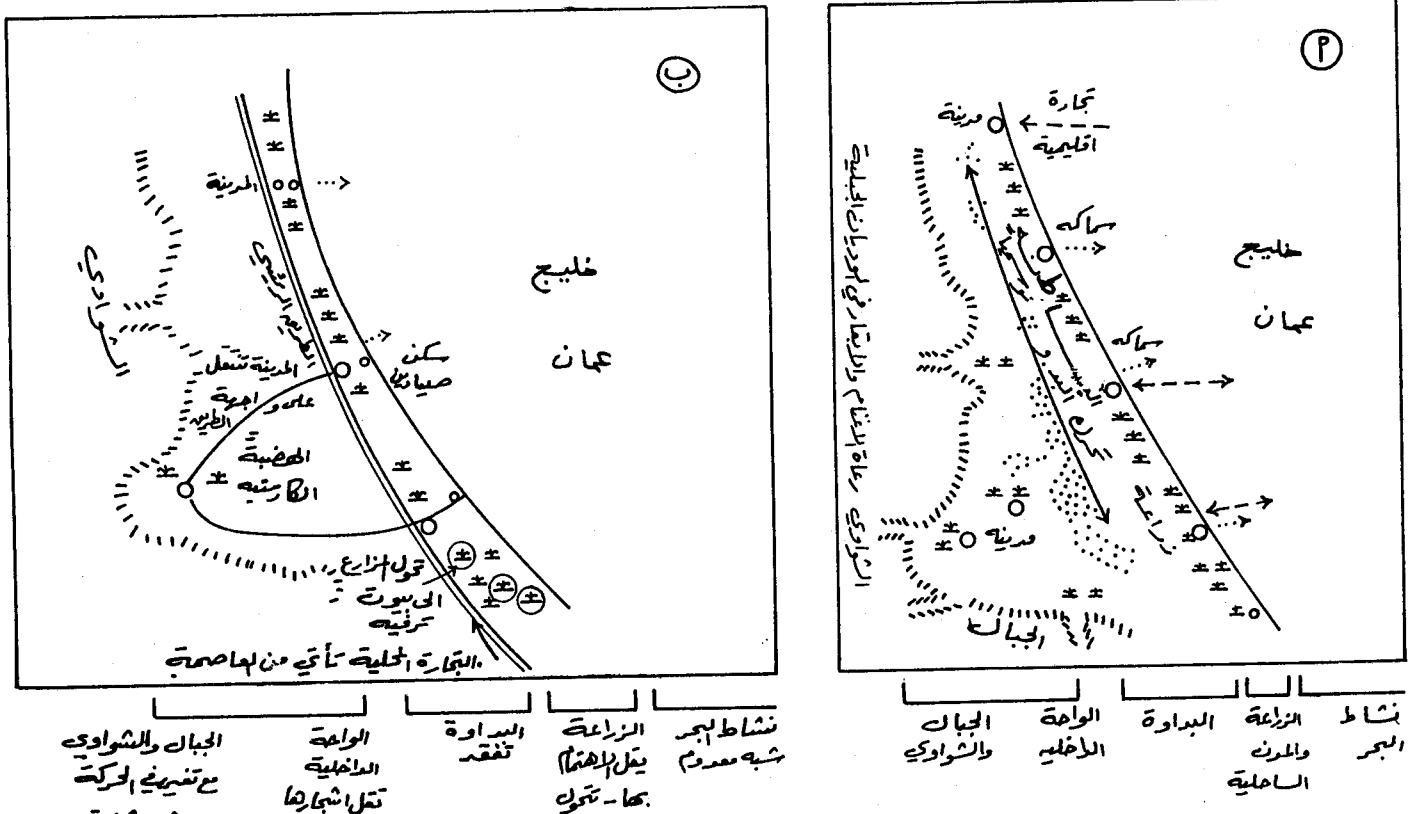

شكل (٦)

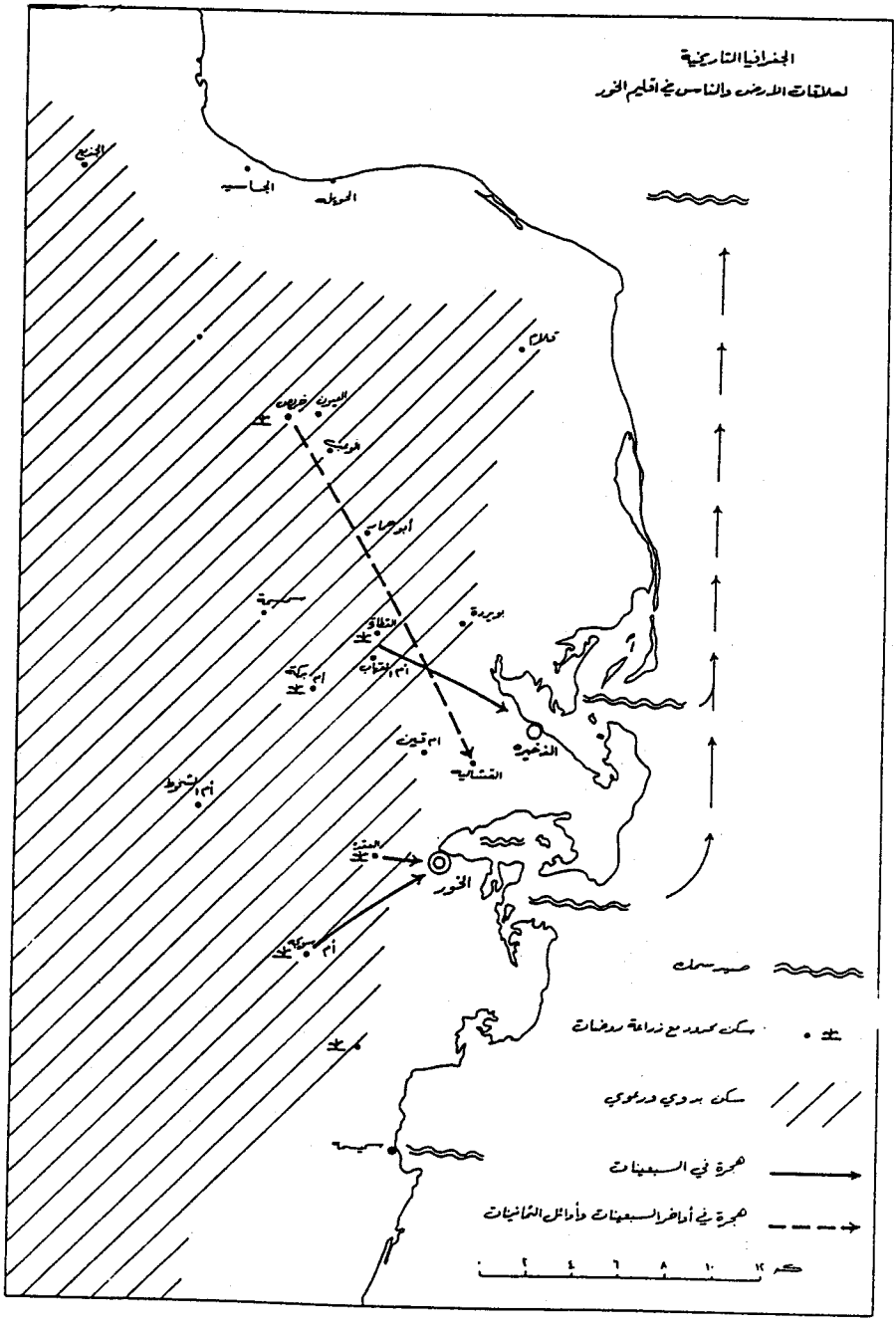
الجغرافيا التاريخية
لعلاقات الارض والناس في اقليم الغور
الخليج
الجاسية
السويلمية
تلالا
البيرين
خريص
أبو حماس
سحيمة
النطاق
الوريدة
أم الشباب
أم ركبة
أم قيس
الشعشاعية
أم الشروط
العيشة
الغور
سحيمة
صيف سهل
سكن كثيف مع زراعة ورعي
سكن بدوي ورعوي
هجرة في السبعينات
هجرة في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات
كم ١٢ ١٠ ٨ ٦ ٤ ٢ ٠

شكل (٧)

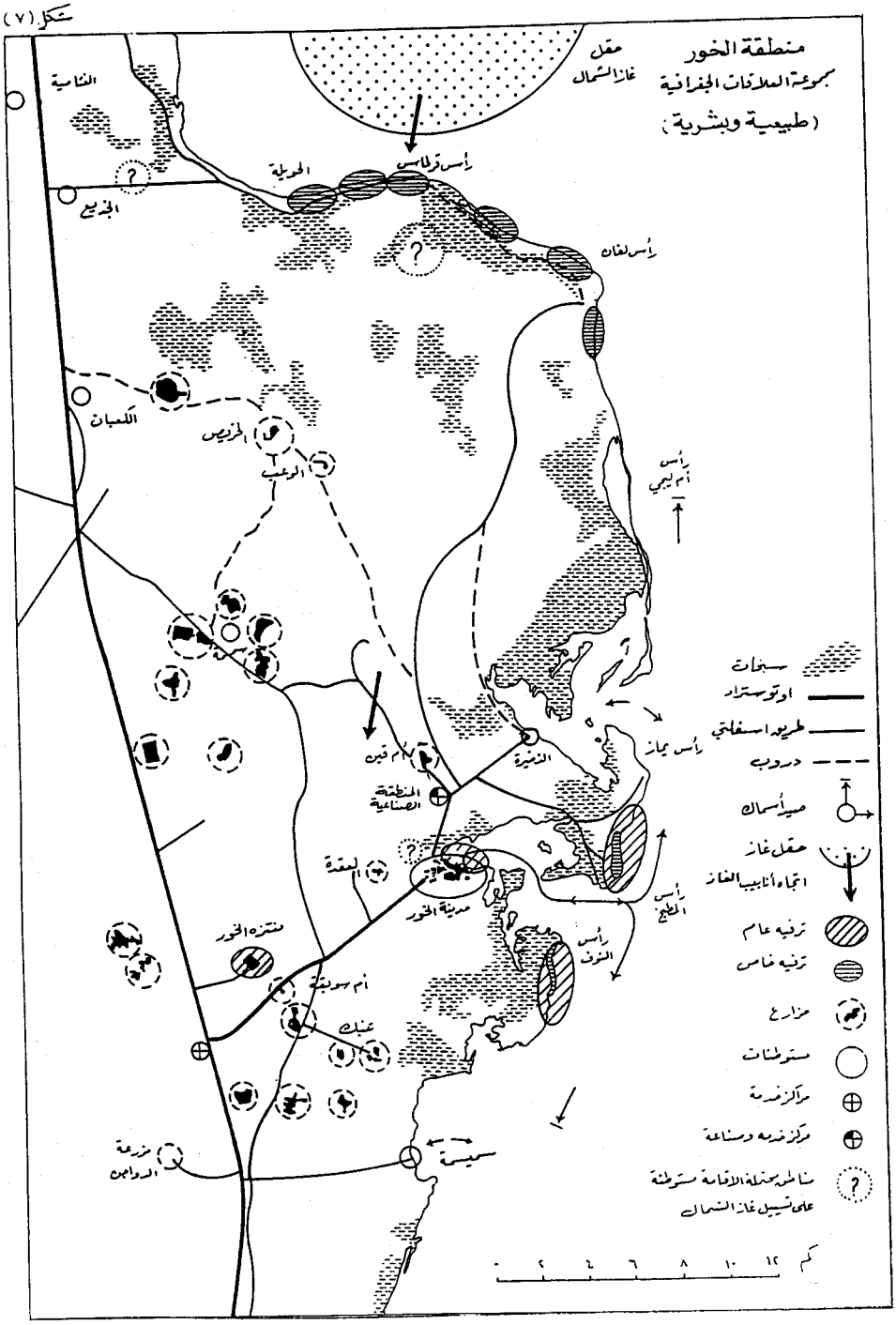
منطقة الخور
مجموعة العلاقات الجغرافية
(طبيعية وبشرية)
حقل غاز شمال
الثنية
الجديد
الحويلة
رأس قرطاس
رأس لفان
اللعبان
المزيص
الوعب
رأس أم ليبي
رأس جماز
الذعيرة
أم قين
المنطقة الصناعية
لسعدة
مدينة الخور
منتزه الخور
أم سويكة
غنيك
سيسة
مزرعة الدواجن
رأس المطبخ
رأس النوف
سجلات
اوتوستراد
طريق اسفلتي
دروب
صيد أسماك
حقل غاز
اتجاه أنابيب الغاز
ترفيه عام
ترفيه خاص
مزارع
مستوطنات
مراكز خدمة
مركز خدمة وصناعة
مناطق محتملة لاقامة مستوطنة على تسييل غاز الشمال
كم ١٢ ١٠ ٨ ٦ ٤ ٢ -

علاقات الانتاج والتجارة الخليجية فيما قبل الميلاد

شكل (٨)